- ٣ -

الصـليب والهـلال

كانت القدس مدينـــة مسيحية · وبعد أن ظلت خاضـــعة للسيادة الاسلامية طوال أربعة قرون حل الصليب محل الهلال · وتحولت المساجد والمعابد الى كنائس وأزيل المحراب ، وأقيم المذبح باتجاه شروق الشمس · ومنع المسلمون واليهود من الاقامة فى المدينة المقدســـة · اذ أن الغزاة المنتصرين اعتبروا أن سكنى أولئك الذين رفضوا المسيح ، فى المكان الذى شهد معاناته وصلبه ، تدنيس للمدينة المقدسة وانتهاك لحرمتها ·

ومع غروب شمس القرن الحادى عشر قامت فى الأرض المقدســة عاصمة مسيحية كما أقيمت عـــدة مستعمرات فرنجية صغيرة فى الرها وبلاد النهرين وانطاكية وسوريا فضلا عن بعض مدن الشاطىء اللبنانى · وكان من الضرورى أن يتم ربط هـــذه المراكز القليلة المتباعدة ببعضها البعض حتى يمكن بنـــاء دولة محكمة البنيان تتميز بوحدة أراضيها · وكانت المهمة تبدو شاقة وعسيرة ورهيبة ، بيد أننا اذا ما رجعنا بذاكرتنا الى الماضى القريب ، ابان الحملة الصليبية الأولى ، والدروب الشـــاقة التى كان عليها أن تسير فيها صوب نصرها النهائى ، بدت هذه المهمة هينة وسهلة · لقد كانت عبارة Dieu le Vent « انها ارادة الرب » هى صيحة القتال لدى الصليبيين ، وكان الصليبيون يؤمنون بأن الرب قد أظهر رغبته فى تطهير معقله ، وأن القديسين قد ســـاهموا فى المعركة ، وجلبوا النصر لجيوش المؤمنين الحقيقيين ، ومن ثم كان هناك أمل فى المستقبل ·

اما قيام المملكة الصليبية لكى تبقى على تراب الأرض المقدســـة ،

فقد كان بمثابة حقيقة مرة غير متوقعة كان على المسلمين أن يواجهوها مع أفول القرن الحادى عشر . وفي بطء عنيد تحولت حيازة الصليبيين الحذرة على بعض المدن القليلة المتناثرة الى سيادة على أقاليم متصلة ، أخذت فى التوسع والامتداد دون أدنى مقاومة . لقد تلقى العالم الاسلامى ضربة مفاجئة أثارت الذعر في جنباته ، وتسببت في شلل الامارات السورية التى كان يحكمها الأتراك السلاجقة فى حلب وشيزر وحماة وحمص ودمشق وغيرها من الممالك الاقليمية التى كانت جميعها تدين بالولاء للخليفة العباسى فى بغداد . وكانت الحروب التى جرت فى العقد السابق على الحروب الصليبية ميراثا من المرارة والحقد والشك بين هذه الامارات الاسلامية . كما كانت الهوة الفاصلة بشكل مستمر بين امارات الشمال المتحاربة ، والجنوب الاسلامى ، عميقة لدرجة امتنع معها العمل المشترك بينها لفترة من الزمان . وكانت مصر القوة العظمى فى العالم الاسلامى تحت حكم الخليفة الفاطمى الشيعى هى المنافس القوى لسوريا وبغداد على المستوى الدينى والاقتصادى والسياسى . ولم يكن الانشقاق الكائن بين أهل السنة فى بغداد والشيعة فى مصر مجرد اختلاف فى المبادىء الدينية . ذلك أن كل خلافة منهما كانت تدعى لنفسها الشرعية الكاملة ، على حين اتهمت فريق الآخر باغتصاب السلطة والخروج على الدين . فضلا عن أن المصالح المتعارضة فى كل من سوريا والعراق وفارس ، حيث يحكم السلطان السلجوقى ، كانت تمنع تعبئة موارد العالم الاسلامى الهائلة فى المجال الاقتصادى والبشرى لصالح الحرب ضد الصليبيين .

هذه الفوضى السياسية هى التى شجعت الصليبيين على المضى قدما ، ومكنتهم من الوصول الى بيت المقدس . وظل الحال على ما هو عليه طوال جيلين تمكن الصليبيون اثناءهما من تدعيم فتوحاتهم . وهكذا شاد الصليبيون دولة عاشت قرنين من الزمان فى مواجهة القوى الاسلامية .

كانت الغزوات الأولى بعد الاستيلاء على بيت المقدس تستهدف شاطىء البحر المتوسط ذا الأهمية الحيوية · اذ لم يكن الشاطىء مجرد جبهة أخرى للتوسع ، وانما كان ضرورة لا يمكن الاستغناء عنها لاستمرار المنشآت الصليبية التى لم تكن قد تمت بعد ، والتى اعتمد وجودها على فيض الامدادات القادمة من أوربا لتجلب موجات جديدة من المقاتلين والمهاجرين المستعدين للسير على درب الحملة الصليبية الأولى المظفرة · وفى الفترة ما بين سنة ١١٠٠ وسنة ١١٠٢ تمت عدة محاولات فاشلة لاستخدام الطريق البرى الذى استخدمته الحملة الأولى · ثم هجر هذا الطريق حتى قدوم الحملة الثانية ، ثم هجر ثانية حتى قدوم الحملة الصليبية الثالثة · واذ اغلق سلاجقة الروم طريق آسيا الصغرى البرى لم يتبق للصليبيين سوى الطريق البحرى · وفى بداية الأمر لم يكن بأيدى الصليبيين سوى ميناءين هما : سان سيمون ميناء انطاكية ، وميناء يافا الزلق الذى كان المسلمون قد هجروه عندما أخذ الصليبيون يشقون طريقهم صوب الرملة والقدس · الا أن الطريق الساحلى كان يمتد على مدى خمسمائة ميل فيما بين الاسكندرونه وغزة ، ومن ثم كانت الصعوبات التى تجشمها الصليبيون هائلة وعديدة · كما انهم لم يكونوا بقادرين على قطع الامدادات عن المدن التى كانت تتلقى مؤنها بشكل مستمر عن طريق ميناء صور ، أو اساطيل مصر التى كانت هذه المدن تدين لها بالولاء الاسمى · فضلا عن أن الصليبيين لم يكونوا يمتلكون أسطولا ، كما لم تكن لديهم أية خبرة بحرية · وهو ما جعل من اساطيل الجمهوريات الايطالية الفتية القوية عاملا مساعدا فى غزو سوريا وفلسطين · وبدأت جنوا ، وتلتها بيزا والبندقية فى توجيه اساطيلها الى الأرض المقدسة · وعلى مدى عقد كامل من الزمان شهد البحر الادرياتى والبحر الليجورى رحيل الاساطيل الايطالية صوب الشرق قرب عيد القيامة حيث كانت تصل الى مياه الشرق فى أبريل أو مايو · وأخذت البحريات الايطالية ـ دونما تخطيط فى البداية ، ثم بالتنسيق مع الصليبيين فيما بعد ـ فى حصار

المدن البحرية الاسلامية من البحر على حين يداهمها الصليبيون من البر · وكان مصير المدن الساحلية واحدا ، سواء منها ما أخذت على حين غرة أو التى استسلمت بسهولة · فقد تعرضت جميع هذه المدن للغزو واستولى عليها ونهبت وقضى على سكانها ، بشكل يتناقض أحيانا مع المعاهدات التى نظمت الاستسلام · وعلى مدى عقد كامل ظل الصليبيون يكيلون ضربات موجعة وعنيفة للساحل الحصين ، وفى نهاية هذه الفترة (سنة ١١١١) كان الساحل السورى اللبنانى الفلسطينى بأسره قد وقع بأيدى الصليبيين فيما عدا ميناء صور المحصن الذى ظل يقاوم حتى سنة ١١٢٣ ، ومدينة عسقلان التى ظلت خاضعة لمصر حتى سنة ١١٥٤ · لقد ثبت غزو الساحل الحدود الغربية الطبيعية للمملكة الصليبية(١) ·

وعلى الرغم من أن فتح المدن الساحلية قد تم فى زمن وجيز ، فانه استلزم جهدا خارقا من القوات الصليبية الضعيفة نسبيا · ومع هذا كان غزو المناطق الداخلية أيسر نسبيا ، اذ أن هذه المناطق لم تكن ذات تحصين قوى ، وقليل من مدنها كان لها أسوار · كذلك كانت القلاع محدودة لأن الحكام الدمشقيين لم يكونوا يعتبرون المنطقة أرض حدود · وهكذا اتجه الصليبيون بعد فتح بيت المقدس مباشرة صوب شمال يهوذا والسامرة(٢)

---

(١) هنا يتحدث مؤلف الكتاب عن فكرة الحدود الطبيعية على نحو يذكرنا بقضية الحدود الطبيعية ومفهوم الأمن الاسرائيلى ، وهو الأمر الذى يدعو الى دراسة مدى التشابه بين الحركة الصليبية والحركة الصهيونية ·

(الترجمة)

(٢) يستخدم المؤلف الأسماء العبرية الواردة فى الكتاب المقدس للدلالة على المناطق التى شهدت أحداث الحروب الصليبية دونما مبرر معقول ، لاسيما وأن أسماء هذه المناطق فى تلك الفترة التاريخية كانت هى الأسماء المعروفة حاليا · وعلى أية حال فان هذا الأمر متكرر فى الكتاب ·

(الترجمة)

حيث استولوا عليها دون مقاومة تذكر ، ثم اتجهوا شمالا حيث استولى تنكرد Tancred على جبل طابور والناصرة وطبرية وفرض الحكم والسيادة الصليبية على الجليل · وبالاستيلاء على طبرية استمرت الغزوات الصليبية عبر بحر الجليل ونهر الأردن خلال مرتفعات الجولان ، ومنها تجاه دمشق عاصمة سوريا · وكانت القوات الصليبية من القلة بحيث لا تمثل خطرا حقيقيا على مدينة كبرى · لقد كانت هذه القوات قليلة بشكل يدعو الى السخرية ، وبحيث لايمكنها أن تفرض حصارا · ففى عدد من الغزوات الرئيسية كانت القوة لا تزيد عن ثمانين فارسا · ومع ذلك فان الغارات المتواصلة على المناطق الريفية غير الحصينة ، والاستيلاء على المواشى ومناطق الرعى ، فضلا عن تدمير المحاصيل وهروب السكان ، قد حمل العاصمة بأعباء ثقيلة منها عبء اللاجئين ، نقص المواد الغذائية وارتفاع الأسعار ·

وهكذا بدأت هذه الجماعات الغازية تحفر بغاراتها المتواصلة على الساحل الجنوبى خريطة المستقبل للملكة الصليبية · ومع بداية العقد الثانى بلور الصليبيون استراتيجية أمن عسكرية وسياسية يمكن تلخيصها فى عبارة « **الحدود الطبيعية** » فقد كان الحد الشمالى السالم يمتد فيما بين بيروت التى سقطت سنة ١١١٠ وجبلة (بيبلوس Byblos **القديمة**) فى مقاطعة طرابلس (لبنان الحديث تقريبا) · وفى الشمال الشرقى كان الصليبيون يسيطرون على منابع نهر الأردن ، وعلى مدينة بانياس وقلعتها التى كانت هى الحصن الوحيد فى المنطقة · أما الحدود الشرقية فكانت تمثل أكثر من مشكلة ، ففى الشمال كانت الحدود الشرقية تجابه دمشق ولم يتمكن الصليبيون من تعبئة القوة الكافية للاستيلاء على المدينة أو حتى توطيد أنفسهم فى تحصينات على الجولان · كما أن الدمشقيين من ناحيتهم كانوا يشاهدون التدمير المنظم لمزارعهم ومراعيهم دون أن يتمكنوا من منعه أو حتى مقاومته على نحو فعال ، اذ كان من المستحيل عمليا بناء الحصون نظرا لقرب قواعد الصليبيين ·

وكانت نتيجة هذا المأزق أمرا غير متوقع · فمنذ عام ١١٠٨ تقريبا أتفق الصليبيون والدمشقيون على نوع من الحكم المشترك لمرتفعات الجولان ، ولم تقم هناك حدود فعلية ، بيد أن الفريقين اتفقا على نزع سلاح المنطقة بأسرها ، وعدم بناء التحصينات ، كما اتفقوا على قسمة عائدها فيما بينهم ، بحيث تأخذ سوريا ثلث عائد الأراضى الزراعية ، ويأخذ الصليبيون الثلث الثانى ، على حين يكون الثلث الأخير من نصيب الفلاحين القائمين بالعمل الفعلى فى الحقول · وكانت هذه المقاطعة تمتد جنوبا حتى قرب نهر اليرموك ، أو الى الحد الجنوبى الذى كانت سوريا تستطيع أن تتدخل عنده بشكل مؤثر وفعال · وعبر اليرموك استولى الصليبيون على الأراضى التى كانت تحت السيادة الاسمية لدمشق · ومع بداية سنة ١١١٥ كان الصليبيون قد تغلغلوا فى أرض جلعاد وعمون القديمة (شرق الاردن) ، وعلى الرغم من جدب هذه المنطقة الآهلة بالسكان ، وخلوها من المراعى ، فقد لعبت دورا هاما فى استراتيجية الشرق الأدنى واقتصاده · ذلك أن موقعها الجغرافى السياسى ، عند مفترق الطريق المؤدية الى العراق وسوريا والحجاز ونهاية طريق سيناء المصرية جعل من الطريق الصحراوى فى المنطقة طريقا رئيسيا وعاما ·

وسرعان ما أعلنت الحصون الاسلامية المتناثرة ، والبعيدة عن القدرة الفعالة لكل من سوريا ومصر ، خضوعها · وهنا أقام الصليبيون حدودهم ولم يقيموها عند مياه نهر الأردن الضحلة · ذلك أنهم أقاموا خطا من التحصينات يبدأ من وادى نهر اليرموك فيما بين عمان والعقبة ، وصارت القلعتان الضخمتان ، الكرك والشوبك (التى سميت مونتريال) وعدد من القلاع الصغيرة ، مقار الحاميات الصليبية · وعلى الرغم من أن عشر قلاع لا يمكن أن تؤمن مساحة من الأرض تمتد على طول حوالى مائتين وخمسين ميلا ، فان مواقع هذه القلاع عوضتها من حيث الكيف

عما كانت تفتقر اليه من حيث الكم · فقد كانت قلاع منطقة شرق الأردن والتى كانت تقام عادة على اطلال القلاع القديمة ، قد نسقت على طول الممر الوحيد الممتد من الشـــمال الى الجنوب فى منطقة شرق الأردن · وكانت الجيوش أو القوافل المتجهة من دمشـــق أو مصر أو بغداد الى الحجاز تضطر الى اتخاذ هذا الطريق الرئيسى ، فضـــلا عن أن المواقع الحصينة كانت تستخدم كأماكن للتزود بالمياه · وكان هذا الطريق بعينه هو طريق الحج المؤدى الى مكة والمدينة ، وكان يعرف باسم «درب الحج»· وقد أدى توطد الوجود الصليبى فى منطقة شرق الأردن الى سيطرتهم على واحد من أهم الشرايين التجارية والعسكرية بالنسبة للمسلمين · فضلا عن أن الأهمية الاستراتيجية لهـــذا الدرب قد تزايدت حين اتحدت مصر وسوريا ، وانقطعت حلقة الوصل بين اراضيهما بسبب وجود الاســـفين الصليبى فى شرق الأردن ·

ولقد صارت سياسة اختيار الحدود الطبيعية (الصحراء) للفصل بين أراضى الصليب وأراضى الهـــلال موضوعا رئيسيا فى حيـــاة الجزء الغربى من المملكة الصليبية · وكانت السيادة الصليبية الفعالة تمتد حتى يافا على الساحل حيث الميـنـــاء الطبيعى الذى يخـــدم مدينة بيت المقدس ، وعند مدينة عسقلان كانت تتوقف هذه السيادة · وقد سقطت هذه المدينة القديمة الشـــهيرة (يافا) بعد احتلال القدس مباشرة ، ولكن الصليبيين أهدروا الفرصة المتاحة لهم ، فلم تسقط عسقلان الا بعد خمسة وخمسين عاما ، وبعد جيلين من المحاولات المستميتة · فقد كانت هناك حامية مصرية تتولى الدفاع عن المدينة التى لم يكن القادة المصريون أو الصليبيون بغافلين عن أهميتها · فبالنسبة للقيادة المصرية كانت عسقلان نقطة عســـكرية أماميـــة ، ومركزا متقدما يســـمح بتركيز الامدادات والقوات فى قاعدة ممتازة عبر الصحراء ، ومن هناك يسهل الهجوم على حبرون (الخليل) وبيت لحم والرملة ويافا ، كما يسهل فصل القدس عن الساحل · والحقيقة

أنه خلال العقد الأول من حكم الصليبيين هاجم المصريون المواقع الصليبية عدة مرات وتقدموا داخل سهل الرملة واللد ، ولكنهم لم يحرزوا نجاحا كاملا ، كما أن هجومهم على يافا باء بالفشل نظرا للقصور فى التعاون والتوقيت بين حامية عسقلان والبحرية المصرية · وفى سبيل الحفاظ على عسقلان ، وضمان وصول القوات الجديدة المقاتلة كان المصريون يغيرون حاميـة المدينـة أربع مرات سنويا · وعندما خرب الصليبيون الريف الزراعى اضطر المصريون الى تقييد كل مولود فى المدينة فى بيان الرواتب العسكرية الخاصة بهم ·

وحتى قبل أن تسقط عسـقلان كان الصليبيون يتغلغلون فى أعماق الصحراء ودمروا واحة العريش أكثر من مرة ، بل وتقدمت بعض الحملات حتى الفرع الشرقى لنهر النيل ، ولكنها لم تحقق نتائج ملموسة · وحتى الآن يطلق اسم بلدوين الأول الملك الصليبى الباسل والذى حاول السيطرة على الطريق الصحراوى الى مصر ، على سبخة البردويل والبحيرة التى تحمل اسمه محرفا · وعند بداية القرن العشرين كان بدو شمال سيناء مايزالون يروون القصص عن العملاق الأشقر بردويل ·

وعندما وصلت المملكة الصليبية الى قمة اتساعها ، وبلغت حدودها الطبيعية ، بدأ المسلمون يجابهون التحدى الصليبى · وقد أثبتت السنوات الخمسون التى تلت قيـام المملكة الصليبية أن الامارات الصليبية كانت عاجزة تماما عن التعاون فى خلق جبهة موحدة · كما أثبتت هذه السنوات أن مصر بكل مواردها الاقتصادية وقوتها البشرية لم تكن ندا للاوربيين · ومن وقت لآخر كانت الامارات السـورية تعقد بعض الاتفاقيات مع مصر رغبة فى العمل المشترك ، ولكن هذا التحالف سرعان ما كان ينفصم بنفس السرعة التى ثم بهـا · والحقيقة أن الأمراء كانوا يشـكون فى بعضهم البعض ، وقد منعهم هذا الشك من الاتحاد فى جبهة عامة ضد الصليبيين

وبمجرد أن أقيمت الحدود بين الهلال والصليب حول المنخفض الكبير الممتد من جبال طرسوس حتى البحر الميت تقريبا (باستثناء مملكة بيت المقدس التى ضمت شرق الأردن) برز الى الوجود نوع من توازن القوى ٠

ولم يبدأ رد الفعل الاسلامى من سوريا أو مصر ، وانما من الموصل٠ وكان حكام الموصل يدينون بالولاء للسلطان السلجوقى فى فارس ، اذ انهم كانوا نوابه فى الشطر الغربى من الامبراطورية ٠ وبهـــذه الصفة كانوا يسيطرون على الامارات السورية والعراقية ، بل وعلى الخليفة العباسى نفسه فى بغداد ٠ وحاولوا باسم الخليفة والســـلطان أن يحصلوا على تعاون حكام سوريا المسلمين ، كما شنوا عدة حملات عسكرية ضد جيرانهم الصليبيين المباشرين فى الرها وفى انطاكية ٠ بيد أن نتائج هذه الحملات لم تكن مرضـــية ٠ وكان السبب فى ذلك أن الأمراء المســـلمين انتابتهم الشكوك والوساوس ، عن حق ، فى تدابير حكام الموصل وأتباعهم فى ممتلكات الأمراء واستقلالهم ٠ ومع ذلك تمكن قادة جيش الموصل بفضـــل تحالف عسكرى كبير سنة ١١١٣ أن يكسبوا معركة ضد الصليبيين قرب بحر الجليل وتمكن المسلمون من حصار القوة العسكرية الكاملة للمملكة الصليبية ، بيد أن عدم القدرة على الاحتفاظ بجيش غير متجانس لفترة أطول من ذلك ، حرم المسلمين من احراز نصر ساحق ٠ ومما زاد فى وطأة هذا الفشل أن السكان حين رأوا جيشـــا مســـلما ضخما فى الارض المقدسة ، ثاروا على الصليبيين ليقدموا مساعدتهم لما كان يمكن تسميته آنذاك جيش التحرير الاسلامى ٠

وعلى الرغم من هذا الفشل ، فان شيئا ما أخذ يتغير داخل المعسكر الاسلامى فمن ناحية أثار تدفق اللاجئين الى المقاطعات الاســـلامية فى أعقاب الغزو الصليبى مشاعر الاستياء ضد القيادة الاســـلامية ٠ وفى البداية علت أصـــوات الاستياء على منابر المســـاجد فى صـــلاة الجمعة ، وسرعان ما حظيت الحركة بتأييد شعبى قوى لتصبح فكرة الجهاد ضـــد

الكفار بمثابة صرخة التجمع للقوات الاسلامية · لقد تقبل المسلمون فكرة وجود بيزنطة المسيحية والتعايش معها كحقيقة واقعة على حين ظلت فكرة الجهاد المتواصل لاقامة الدين الحق رهينـــة الكتب فقط ، وهو أمر أشبه بالفكرة الحديثة عن الثورة الدائمة لاقامة النظام السياسى الوحيد العادل والصحيح · والآن انقشع الغبار عن فكرة الجهاد ، وسطرت الكتب التى تتناول واجب الجهاد ، كما دبجت الرسائل التى تداولها الجميع عن قدسية بيت المقدس ·

وقد استغل زنكى ، وهو أحد الحكام المسلمين الموهوبين ، هذا البعث الايديولوجى · فقد قامت المدارس والعلماء والدوائر المتدينة بخلق مناخ للرأى العام كان من المتعذر فى ظله أن يتجنب الأمراء السوريون المواجهة المباشرة للتحدى الذى فرضته المملكة الصليبية · وقد نجح زنكى تدريجيا فى التغلب على القوات المنعزلة فى كل من سوريا والعراق · وفى سنة ١١٤٤ شن زنكى هجوما ناجحا على الرها واستولى على عاصمة أول دولة صليبية قامت على تراب الشرق ·

وكان سقوط الرها نذير شؤم وصدمة نفسية مؤلمة ، اذ أنه كان يعنى أن مقاطعة انطاكية الواقعة الى الشمال الغربى من الرها ستكون محطـا للضغط المتواصل من جانب المسلمين على حدودها ، كما بات من المتوقع أن تزداد الغارات الاسلامية عليها بعد زوال خطر القوات الصليبية فى الرها · وفى سنة ١١٤٦ جـــرت محاولة فاشـــلة من جانب الصليبيين لاسترداد المدينة · اذ تمكن واحد من النجوم الطالعة فى سماء السياســة الاســـلامية من اعادة احتلال الرها ، وهو نور الدين محمود خليفة زنكى وورثيـــه · ولكن على الرغم من انتصـــاره الباهر ، لم يكن فى قدرة نور الدين محمود أن يشن هجوما شاملا على المملكة الصليبية · ذلك أن سيطرته على الامارات السورية والعراقية لم تكن قد استقرت بعد ، بل ان

الأمر ازداد سوءا بسبب المعارضة السورية الشرسة · فقد كانت العاصمة السورية قد توصلت الى حال من التعايش السلمى مع جيرانها الصليبيين ، مما أكد استقلالها السياسى ومركزها الاقتصادى · وبمرور الوقت وجدت دمشق فى الصليبيين جارا يوثق به وحليفا فى بعض المناسبات يعتمد عليه أكثر من الجيران المسلمين · وعلى هذا لم تكن المملكة الحاكمة فى دمشق ، والتى ربطت نفسها بمصـــالح اقليمية أكثر من ارتباطها بالسياســـة السلجوقية ، راغبة فى أن تتحرر على أيدى قوات زنكى ، أو نور الدين لتجد نفسها وقد انضمت الى املاك أسرة زنكى · لقد فضلت دمشق أن تحتفظ باستقلالها · وعلى مدى جيلين وجدت الأسرة الحاكمة فى دمشق تأييدا من المواطنين لسياستها · وكان من الطبيعى اذن أن تصير دمشق بؤرة المعارضة المضادة لزنكى · وفى هذه الظروف مد الصليبيون يدالعون أكثر من مرة لدمشق عندما كان يهددها زنكى أو نور الدين · ولم يكن الأخير بقادر على أن يغزو المملكة اللاتينية ومن وراء ظهره دمشق التى لا يثق بها ، كما أن قرب الصليبيين كان يحول دون فرض أى حصار على العاصمة السورية ·

ومن الغريب أن الصليبيين هم الذين قاموا بتقويض هذا الترتيب الذى كان يناسبهم تماما · فقد كان ســـقوط الرها يمثل التحدى الاكبر لأوربا المسيحية · وكان من الغريب ، بل ومن الظلم ، أن تهزم دولة مسيحية على أيدى الكفار ، وأن يضيع الايمان الحقيقى (المسيحية) فى المواجهة · وانطلاقا من هذه الرؤية تحركت أوربا يدفعها شعور بالعار ، والرغبة فى الانتقام وتصحيح الخطأ · وكان بطل هـذه القضية هو البابا ايوجنيس الثالث Eugenius III · ولـكن الرجـــل الـذى وضع الجيـوش على الطـــريق الى الشـــرق حقـــــا كان هـــو برنار الكليرفوى Bernard de Clairvaux فقـــد تجمعت الجيـــوش فى فرنســـا والمانيا تحت قيادة ملكيهما لويس السابع وكونراد الثالث استجابة لدعوته ·

وفى سنة ١١٤٨ وصلت الحملة الصليبية الثانية الى الأرض المقدسة · وكان الجميع يتوقعون أن يقوم الفرسان الأوربيون والجيوش الصليبية بشن هجومهم على الرها بغية استردادها ، عاصمة واقليما · ولو أن الهجوم كان قد بدأ من انطاكية فعلا لتوقف تيار نور الدين الصاعد ·

ولكن ما حدث بالفعل كان أسوأ ما يمكن للمرء أن يتوقعه ، فقد قرر الملوك الأوربيون والصليبيون الهجوم ··· ولكن على دمشق ! وكانت هذه الخطوة من الغرابة لدرجة أن المؤرخين حتى يومنا هذا يناقشون الأسباب التى أتت بجيوش الحملة الصليبية الثانية الى أسوار دمشق · وعند هذا باتت الأحداث أكثر اضطرابا وغموضا ، ذلك أن الجيوش المحاصرة قد أجبرت على التقهقر بشكل مخز وانسحبت بعد أربعة أيام من القتال كانت قد أحرزت أثناءها نصرا أوليا · واتهم القادة الأوربيون الصليبيين صراحة بقبول رشوة دمشق لاحباط الحصار وانتهت الحملة الصليبية الثانية بالفشل على حين بقيت الرها مدينة اسلامية · هذا التخبط السياسى هو الذى دفع بدمشق الى الارتماء بين ذراعى نور الدين محمود المفتوحتين فى سنة ١١٥٤ · وزاد من حرج الفشل الصليبى ووطأته موجة النقد الأوربية التى حالت دون شن هجوم صليبى جديد على الرغم من جهود برنار الكليرفوى وسوجير السان دونى Suger de St. Denis .

وفى الشمال الاسلامى كان الصليبيون يواجهون قوة متحدة متماسكة أكثر من ذى قبل · وقد دفعهم هذا الى عقد علاقة مباشرة مع بيزنطة التى كانت تبدو حتى ذلك الحين كمنافس أكثر من كونها حليفا · وكان الطرفان على استعداد للاتفاق واعترف الصليبيون بالسيادة البيزنطية على انطاكية ، وقبلوا لفترة قصيرة وجود بطريرك بيزنطى للمدينة · كما جدد الامبراطور مانويل كومنينوس الأول Manuel I Comnenus الأبنية الكنسية فى المملكة وقام على زخرفتها وتزيينها · ولم تكن الأديرة

البيزنطية هى الوحيدة التى تم تزيينها وتجديدها ، اذ غطى صحن وجناح كنيسة الميلاد فى بيت لحم بالفسيفساء اللامع البراق ، كما امتد اهتمام الامبراطور الى داخل كنيسة القيامة ، وبدت الكتابات اليونانية واللاتينية المنقوشـــة وكأنها تدخل بنا فى روح تحالف مسـكونى بين أكثر الممالك ارثوذكسية وأشدها كاثوليكية ٠

وفى الشمال أجبرت الجبهة الاسلامية الصامدة الفرنجة على الاتجاه جنوبا ٠ وكان الوقت مناسبا لذلك ٠ فقد كانت مصر آنذاك بمثابة الرجل المريض على ضفاف النيل اذ كانت الخلافة الفاطمية عارية الا من بعض ظلال قوتها السابقة ، فقد توالى تغير الوزراء الحاكمين لمصر فى ايقاع سريع من الانقلابات والفتن وارتقاء كرسى الحكم عن طريق الاغتيال ٠ وكان تقدم الصليبيين فى سنة ١١٥٠ الى غزة الواقعة على طرف الصحراء يشير الى الاتجاه الصليبى الى مصر ٠ ثم حدث أيضا الهجوم الصليبى على العريش سنة ١١٦١ وبدأت مصر فى أعقابه تدفـــع اتاوة ســـنوية للصليبيين ٠ وأخيرا حانت فرصة التدخل فى سنة ١١٦٣ عندما لجأ أحد الوزيرين المتنافسين فى القـــاهرة الى أمالريك Amalric (أمورى) ملك بيت المقدس طالبا مســاعدته ٠ وخلال السنوات الست التالية غـزا الصليبيون مصر خمس مرات ٠ وكانت هناك فرصـة طيبة لوقف الخطر المصرى كما حدث مع دمشق من سنوات قليلة مضت ، واذا لم يقبل الجار الجنوبى للصليبيين (أى مصر) أن يكون حليفا لهم ، فان حياده على الأقل سيؤدى الى موازنة الخطر الشمالى ٠ وعلاوة على هذا كانت بيزنطة على استعداد للتعاون مع الصليبيين ، كما كان أســطولها على أهبـــة الاستعداد للتحرك صوب مصر ٠ بيد أن هـــذا التحالف المسيحى لم يدم طويلا ، اذ كان الصليبيون يعتقدون أنهم يستطيعون أن يحـرزوا النصر وحدهم وأن ينفردوا بثماره ٠

وقد أدى التدخل الصليبى لصالح أحد الوزيرين المتنافسين فى مصر

بالوزير الآخـر الى البحث عمن يحميه ، فأرسـل البعثات الدبلوماسية العاجلة الى نور الدين محمود الذى لم يكن راغبـا فى التدخل ، ولكن مسـاعده شيركوه قائد فرق الجيش السـورية والعراقية اجتاز القلاع الصليبية فى شرق الأردن من طريق جانبى وشق طريقه الى مصر · ودار القتال على الأرض المصرية بين الصليبيين والسوريين المسلمين ، وكانت غالب المعارك تنتهى بانتصار الصليبيين · بيد أن النصر النهائى لم يكن من نصيب أى من الجانبين · وقد رفرفت اعلام الصليبيين فوق القاهرة ، كما شوهدت تحت اسوار الاسكندرية ، ولكن القصة التى دارت على أرض مصر أنتهت بفشـل ذريع للصليبيين الذين اسـاءوا التصرف وازدادت مطالبهم المالية ، بل وفكروا أيضا فى ضـم مصر الى املاكهم · وهو أمر لم تكن الجماهير المصرية لتقبله · وفى الوقت الذى كان فيه القتال دائرا بين القادة على السلطة كانت جماهير المصريين فى شغل عن القتال · وانتهى الوجود المسيحى فى مصر ولقى شيركوه تأييدا شعبيا متزايدا ، واضطر الصليبيون الى الانسـحاب وان ظل حكم مصر سرابا يجذبهم نحوه بين الحين والحين ·

ولم تؤد هذه الحملات المجازفة الى تقلص الموارد العسكرية والمالية للمملكة اللاتينية فحسب ، وانما أدى فشلها الى تغيير خريطـة الشرق الأوسط · اذ أن شيركوه صـار وزيرا لمصر · وبعد موته سنة ١١٦٩ خلفه ابن أخيه صلاح الدين الذائع الصيت · وبعد عامين عندما توفى الخليفة العاضد انتهت الخلافة الفاطمية عام (١١٧١) · وتم فى مصر الاعتراف رسميا بالخليفة العباسى فى بغداد · وعلى العكس من جميع التوقعات لم تتحد مصر وسوريا ضد الصليبيين · فخلال السنوات الأخيرة من حكم نور الدين محمود الذى توفى سنة ١١٧٤ كان التوتر قد تصاعد بين الحاكم السورى وصلاح الدين مساعده الذى يحكم مصر · وكان على هذه الوحدة بين مصر وسوريا أن تنتظر حتى يتم خضوع سوريا والعراق للجيش المصرى تحت قيادة صلاح الدين ·

كان صلاح الدين بطل التاريخ الاسلامى زعيما وقائدا عسكريا متوسط القيمة ، كما كان رجل دولة موهوبا ، كريما مع الصديق والعدو محبا للغير يبعث على الثقة · وكان صلاح الدين يجسد الاخلاق الاسلامية فى عيون المسلمين ، فهو الزعيم المثالى لحرب المقدسة ضد الكفار · ولكنه قبل أن يبدأ الهجوم على المملكة الصليبية وبعد أن نالته هزيمة مؤلمة فى احدى المعارك سنة ١١٧٧ · بدأ صلاح الدين فى غزو سوريا الاسلامية واحتل دمشق فى سهولة · ولم يعترف حاكم سوريا بالحاكم الجديد الا بعد عشر سنوات · وظلت حلب بمعاونة الصليبيين فى انطاكية بعيدة عن متناول صلاح الدين حتى سنة ١١٨٣ · وعندئذ ، وبعد أن دعم صلاح الدين قوته بدأ استعداداته للمواجهة الشاملة مع الصليبيين ·

وحاول الصليبيون مع القوى المعارضة فى مصر أن يحيكوا خيوط مؤامرة تطيح بصلاح الدين ولكنهم باءوا بفشل ذريع · كما أنهم قاموا بعدد من الغارات الجريئة عبر سيناء ووصلوا الى بحيرات السويس ، على حين قاموا بشن غارات أخرى على تيماء فى شمال الحجاز · وكانت أجرأ حملة هى تلك التى نظمها رينو دى شاتيون Renaud de Chatillon زوج الملكة السابقة لانطاكية ، والذى كان أسيرا لمدة سبع عشرة سنة ، وصار زوجا للملكة الحاكمة آنذاك على شرق الأردن ، وهى السيدة ايشيف Eschive · وفى شرق الأردن راودته فكرة خطة جريئة لاقتحام البحر الأحمر وربما غزو مكة والمدينة على الرغم من أن هدفه النهائى كان هو التحكم فى حركة المرور الدولية بين آسيا ومصر عن طريق باب المندب · وفى سنة ١١٨٢ بنى اسطولا فى قلعة الكرك الصحراوية ونقله مفككا لمسافة تقرب من مائة وخمسة وعشرين ميلا عبر الطريق الصحراوى الى خليج العقبة حيث تم تركيبه وانزاله الى مياه البحر الأحمر · وتم احتلال جزيرة فرعون الصغيرة المواجهة للعقبة ،

ثم اعقبت ذلك غـارة متعرجـة نهب الصـليبيون اثناءها بعض الموانىء المصرية والحجازية · ومضت أسابيع قبل أن ترد مصر المباغتة وعندما تمكن الأسطول المصرى من رصد موقع الصليبيين فى صحراء الحجاز ، كان الصليبيون قد توغلوا الى مسافة تقرب من المدينة ·

وفى الوقت الذى كان فيه أحـد بارونات الصليبيين ينظم سياسته الخارجية ، كانت الخلافات الداخليـة تنهش بمخالبها المملكة الصليبية ، اذ تمزقت المملكة بين ريمون أمير طرابلس الذى كان يمثل طبقة النبـلاء الصـليبيين الأوائـل وبين جـاى دى لوزينـان Guy de Luisignan الذى كان واحدا من القادمين الجدد ، واعتلى عرش المملكة باعتباره زوجا لسيبيل Sybille وريثـة العـرش · ونظـرا لمعارضـة الارستقراطيـة الصليبية لم يجد ملك بيت المقدس الشجاع ، وربما غير الحكيم ، الوقت اللازم لفرض سيادته قبل أن يخترق صلاح الدين مرتفعات الجـولان عند طبرية عاصمة الجليل · وعلى الرغم من الخلاف التف الصليبيون حـول مليكهم · ولـكنهم بـدلا من أن ينتظروا لملاقاة المسـلمين فى موقعهم الاستراتيجى الممتاز فى الجليل اتبعوا نصيحة متهافتة وتحركوا باتجاه بحر الجليل لنجدة المدينة المحاصرة · وفى يوم ملتهب من أيام الصيف ، ٤ يوليو سنة ١١٨٧ ، وقع الصليبيون فى كمين فى سهل صغير مغلق فى قرون حطين · وتبدد الجيش الصليبى عن بكرة أبيه بين قتيل وأسير · وكان عـدد مقاتليه حوالى الف ومائتى فارس بمـا فى ذلك فرسان الرهبنـات العسكرية ، وحوالى ألف من المشاة · وكانت هذه هى كل القوة العسكرية المتاحة للمملكة · وماثلا هزيمة الصليبيين فى حطين كان شـيئا أشـبه باستعراض عسـكرى أكثر منه حملة عسـكرية · فقد أخـذت المدن الصليبية تفتح ابوابها الواحدة بعد الأخرى ، كما سلمت القلاع والحصون تباعا استجابة لدعوة صلاح الدين الذى خير قاطنيها بن الرحيل أو التوجه الى ما تبقى من أراضى المسيحية · وفى الثانى من اكتوبر سنة ١١٨٧ ، أى بعد ثمانية وثمانين عاما من السيادة المسيحية فتحت بيت المقـدس

أبوابها لصلاح الدين · وبعد شهور قليلة لم يكن قد تبقى بأيدى الصليبيين سوى صور وانطاكية وطرابلس فى الشـــمال وبعض القلاع المتناثرة · وبدا واضحا أن الســـاعة الأخيرة فى عمر المملكة الصليبية قد بدأت دقاتها ·

وجاء رد الفعـــل الأوربى · فلم يكن ضياع القدس مجـــرد فقدان عاصـــمة ، وانما كان فقدانا لأكبر رمز محســـوس للدين وهو الضريح المقدس · لقد صـــار قبر المسيح فى أيدى الكفار مـــرة أخـــرى · ومن ثم انطلقت الدعوة الى خروج صليبى جديد فى شتى أرجاء الغرب الأوربى ، وتزعـــم هـــذه الدعـــوة ملوك العـــالم المسيحى الغـــربى حيث تولى الامبراطور فردريك الأول بربروسا قيادة القوات الألمـانية وهو فى السبعين من عمره · كما قاد ريتشـــارد قلب الأســـد ، ملك انجلترا ، الفرســـــان الانجـلو ـ نورمان والاكويتانيين ، على حين كان فيليب اوغسطس زعيم آل كابيه يقود قوات فرنسا · وتحرك أيضـــا الى الشرق عدد كبير من ألمـــع نبلاء أوربا · ومضى عامان قبل أن تصـــل بعض قوات هـــذه الحملة الصليبية الى شـــواطىء الأرض المقدســـة من عـــدة طـــرق مختلفة · فقد اتخـــذت الحملة الألمانيـــة الطريق البرى بمقتضى بعض المعاهدات مع حكام المجر وبيزنطة وقد تكبدت الحملة خسائر جسيمة عند عبورها الى آسيا الصغرى ، وكان غرق الامبراطور المسن فى مياه نهر كاليكاندوس Calycandus فى أرمينيـــا الصغرى أكبـــر خســـارة تدقت بهذه الحملة قبل وصولها الى شمال ســـوريا ، وهكذا تدهورت معنويات الجيش الألمانى بشكل تعذر معه على دوق سوابيا أن يصل ببقية الجيش الألمانى الى الأرض المقدسة · أما ريتشارد وفيليب اوغسطس فقد ســـلكا طريقين بحريين مختلفين وتقابلا فى صقلية حيث أمضيا شـــتاء ســـنة ١١٩٠ ـ ١١٩١ وهناك اختلفا ســـويا حـــول الصراعات المحلية ، وتبادل

الأثنان المنافسة التى كانا قد طرحاها جانبا بشكل رسمى يوم أن قررا المشاركة فى الحملة الصليبية ، ثم ابحرا سويا سنة ١١٩١ · وكان ريتشارد هو الثانى فى الوصول ، لأنه استولى على جزيرة قبرس من حاكمها البيزنطى وهو فى الطريق الى عكا · وربما تكون السنتان ونصف السنة التى مضت فيما بين سقوط بيت المقدس ووصول فرق الحملة الصليبية الثالثة قد قضت على كل أمل فى استرداد القدس · الا أن كونراد مونتفرى Conrad of Montferrat ، الذى أبحر من القسطنطينية ، ونجا من الوقوع أسيرا فى عكا بأعجوبة ، ثم دخل ميناء صور التى كانت المدينة الوحيدة الباقية بأيدى الصليبيين ··· هذا الرجل وجد فى صور أولئك الذين نجوا من سيف صلاح الدين وأولئك الذين سمح لهم القائد المسلم بالعودة الى الأراضى المسيحية كشرط من شروط معاهدة التسليم · كانت مدينة صور بلا قائد ، فقام كونراد فى الحال باعادة تنظيم سبل الدفاع عن المدينة ، وقاوم فى شجاعة تهديدات صلاح الدين والحصار الذى فرضه على المدينة · وفى الوقت نفسه بدأ جاى دى لوزينان ملك القدس التعس ، والذى كان قد أسر فى حطين ثم فك أسره مقابل وعد شرف ، ينظم فلول القوات الصليبية الهزيلة ناكثا عهده مع صلاح الدين · واغلقت أبواب صور فى وجهه وفقا لأوامر مونتفرى ، ولكن فرقته الصغيرة تحركت فى جسارة الى سهل عكا حيث اتخذت مواقعها فى مواجهة المدينة فى سنة ١١٨٩ · وهكذا باتت صور وخليج عكا بمثابة رأس الجسر للحملة الثالثة ·

ومع وصول دوق سوابيا فى خريف سنة ١١٩٠ بدأت اعداد الجيوش الصليبية تتزايد · وتضخم عددها بوصول القوات الفرنسية فى ربيع سنة ١١٩١ ، ثم تلتها القوات الانجلو نورماندية بعد شهرين · وهكذا أصبحت عكا التى ضيق الصليبيون الخناق عليها على مدى عامين هى محور تاريخ الشرق الأدنى والتاريخ الأوربى · لقد حوصرت المدينة من

البحر ، كما أحاط بها الصليبيون من جهة البر · وضيق عليهم صلاح الدين الحصار بجيوشه التى كان يعسكر بها من شاطىء الى شاطىء فيما يشبه نصف الدائرة الضخمة · وعلى الرغم من جهود صلاح الدين للدخول الى المدينة المحاصرة بقوات جديدة وامدادات ، فان المدافعين عنها لم يتمكنوا من الصمود أمام الهجمات الصليبية · واستسلمت المدينة فى يوليو ١١٩١، وصارت عكا هى الانتصـــار الأول للحملة الصليبية الثالثة ، أو حملة الاسترداد · ومن سوء الحظ أن فتح المدينة أعقبه فى التو رحيل الجـــزء الأعظم من الجيش الى الوطن · ولم يبق من القادة سوى ريتشارد الذى ظل عاما كاملا أحرز فيه انتصارا باهرا على صلاح الدين فى أرســـوف واستعاد المدن الساحلية حتى يافا فى الجنوب · كما وصـــل الى منطقة قريبة من أسوار بيت المقدس بيد أنه لم يستطع أن يسترد المدينة ذاتها ·

وعندها بدأ المعسكران الاسلامى والصليبى يحسان بوطأة النفقات الهائلة من ناحيـــة القوى البشرية والموارد المالية ابان الحملة الصليبية الثالثة · كما أن ريتشارد لم يتمكن من البقاء فى الأرض المقدسة تحت ضغوط الأخبار القـادمة من انجلترا · كذلك كانت موارد صـلاح الدين المالية والبشرية آخـذة فى الضعف ، كما تململت فرق الجيش من طـول فترة الحرب · وعلى هذا وقع الطرفان ، فى سبتمبر ١١٩٢ معاهدة سلام ثبتت الحدود تقريبا على ما هى عليه · وهكذا ولدت مملكة القدس الثانية كقطاع ضيق من الأرض يلتصق بالساحل ويمتد من بيروت حتى يافا · وبقيت القدس ، هدف الحملة الصليبية الثالثة ، مدينة مسلمة · وكانت المنطقة الوحيدة التى اتسعت فيها المملكة عرضا فيما بين يافا والرملة على طول الطريق الرئيسى الى المدينة المقدسة البعيدة المنال ·

وسرعان ما تحولت التوقعات الكبيرة التى كانت منتظرة من الحملة الصـــليبية الثالثة الى يأس واتهامات حادة للزعامة الصليبية · ذلك أن العامين اللذين استغرقتهما الجهـــود الأوربية لم تكن لتقارن بالانجازات

الهزيلة التى حققتها الحملة · وعندئذ تحـــول النقد الانتقامى الى تحليل جاد ، وبدأت الشكوك تساور البعض حـول الالهام الالهى الذى يزعمـه الصليبيون ويدعونه · وعلى الرغم من هذه الأزمة الايديولوجية ، فقد تم تنظيم عدد من الحملات الصغيرة قرب نهاية القرن الثانى عشر من أجـل تدعيم موقف المملكة الصليبية وفى محاولة فاشـلة لمد السلطة السياسية فوق أراضى الشرق · وفى أثناء احدى هذه المحاولات تم ضم بيروت الى المملكة · ومن الناحيـة الموضوعية بدا الموقف مناســبا ، ذلك أن وفاة صلاح الدين سنة ١١٩٥ أدت الى تفسخ امبراطوريته فى الحال · لقد كان هو الرجل الذى يحفظها من التفسخ ، ولم يكن ثمة مبدأ متوارث أو تناسق داخلى يجمع أطراف هذه الامبراطورية · وانتهج الأيوبيون فى كل من سوريا والعراق واليمن سياســات مستقلة ، على حين اعترفوا بالسيادة الاسمية لحاكم القاهرة · ومزقت الاحقاد والمنازعات القديمة الوحدة التى كان تحقيقها قد تم فى مشقة · وفى هذه الظروف بدأت أوربا استعدادها لحملة جديدة بتحريض من البابوية والصليبيين وكانت الحملة الرابعـة الشهيرة ·

لقد استترت تقلبات أحـداث الحملة الصليبية الرابعـة منذ بدايتها حتى نهايتها المأساوية خلف ضباب كثيف من الحيرة والشك · وكان الأب الروحى للحملة هو انوسنت الثانى الذى يعتبر أعظم بابوات العصـــور الوسطى ، كما كان قادة هذه الحملة ينتمون الى أكبر الأسرات الحاكمة فى أوربا ، مثل تيلبلد الشمبانى Theobold of Champagne وفيليب حاكم سوابيا وبونيفيس مونتفرى · وكان هـدف هـذه الحملة هو الغزو المباشر لمصر · وفى سنة ١٢٠١ ، وبعد عـــدة سنوات من الاستعداد · تجمع الصليبيون فى ميناء البندقية · وبعد عام كان الصليبيون يفرضون حصـارهم على ··· القسطنطينية العاصـمة المسيحية !! وقد استمرت الاتهامات والاتهامات المضادة بعد احتلال القسطنطينية مباشرة ، ولم تخمد

حتى يومنا هـذا · ويلقى المؤرخون باللوم على فظاظة الألمـان ، واطماع بارونات الشمال ، وعلى أحد المطالبين بعرش بيزنطة · ولكنهم أيضا يلقون باللوم على البندقية أولا وقبل كل شيء ·

والأحداث الرئيسية واضحة ، بيد أن الدوافع تترك مشكلة المسئولية دونما حل · فقد تم التخطيط للحملة على أساس أنها سوف تسلك الطريق البحرى تجنبا للصعوبات التى واجهتها الحكومات السـابقة عند عبور آسيا الصغرى · وتم النقل على متن اسطول بندقى بنته الجمهورية البندقية وتكفل الصليبيون بنفقات انشـائه · وعندما توجهت مختلف الفـرق الصليبية الى البندقية فى خريف سنة ١٢٠١ ، بات واضـحا أن تكاليف الانتقال تفوق طاقة الصليبيين · ومع ذلك نفذ البنادقة ما عرضـوه من خدمات ، بيد أن المكافأة اختلفت فى ماهيتها : فقد طلبوا الاستيلاء على مدينة زارا Zara المجرية على البحر الأدرياتى (وكانت هذه شوكة فى حلق البندقية ملكة البحر الأدرياتى) · ووافق الصليبيون وتم الاستيلاء على زارا التى كانت مدينة مسيحية فى مملكة مسيحية · وتلا هذا التحرك قرار مصيرى آخر · فمنذ سنوات كان اسحق انجلوس الثانى امبراطور بيزنطة قد امضى عن عرشه على يد اليكسيوس الثالث ، وحاول اليكسيوس الرابع انجلوس ابن الامبراطور المخلوع الحصول على مسـاعدة البلاط الألمـانى فقابل الجيوش الصـليبية فى زارا ، وأقنع قادتهـا بغـزو القسطنطينية ، واعادته الى السلطة واعدا الصليبيين بأن يضـع موارد بيزنطـة تحت تصرفهم اذا ما استعاد العرش الامبراطورى ، فضـلا عن المكافأة السخية التى وعد بها الجيوش المحررة · وقد وجدت البندقية فى هذه الفكرة فرصـة عظيمة لتوطيد نفوذها فى بيزنطـة ، وبذلك تتم لها السيطرة على أعظم المراكز التجارية الرئيسية فى العالم · وقد وجد هذا المدعى البيزنطى تأييدا بين الألمان حيث كانت زوجته ايرين أخت فيليب ملك سوابيا · ومع ذلك ، وعلى الرغم من كل هذه المصالح المكتسبة ، لم يكن

ممكنا اتخاذ هذا القرار المعادى لبيزنطة لولا حالة العداء الدائم بين الغرب والامبراطورية البيزنطية · وبدأ دخان هذه الكراهية فى الظهور خـــلال الحملة الصليبية الأولى ، وسرعان ما تأججت نيرانها فى عداوة صريحة ابان الحملة الصليبية الثالثة ، عندما وجه الصليبيون اتهامهم لبيزنطة ، بصراحة ، بمساعدة صلاح الدين ·

وعلى الرغم من أن الفكرة الأساسية ربما كانت أولا اجبار بيزنطة على الدخول فى تحالف لمســـاعدة المملكة الصليبية ، فان الحملة نفسها غيرت من هدفها · فما أن حل الصليبيون بالقسطنطينية حتى تم ابعـــاد مغتصب العرش ، وصـــار اليكسيوس الرابع انجلوس صنيعة الصليبيين حاكما على الامبراطورية فى يوليو سنة ١٢٠٣ · وعندما تهرب من وعوده بالمكافأة عصف الصليبيون بالمدينة فى ابريل سنة ١٢٠٤ واقتحموها ، وصار بلدوين أمير الفلاندرز هو أول امبراطور للامبراطورية الجديدة : الامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية · وأصبح أحـــد البنادقـــة أول بطريرك لاتينى لها · وتم تقسيم الامبراطورية مثل سائر الأسلاب والغنائم فيما بين المنتصرين ، وأسست البندقية امبراطوريتها البحرية فى بحر ايجه ·

وهكذا وجد البنـــاء الصليبى فى القسطنطينية ، وحكم آل لوزينان مملكة قبرس المستقلة التى اعترفت بسيادة الامبراطورية الرومانية ، كما فعلت أرمينيا الصغرى (الذى تلقى حاكمها تاجه من سفراء الامبراطور) · ومن الناحية النظرية كان بوسع هذه الممالك أن تعمل كقواعد لمســـاعدة مملكة بيت المقـدس المزعزعة الأركان · ولكن الأمـور كانت تختلف تماما على المستوى العملى ، اذ كان لكل مملكة مشاكلها الخاصة بها · وافتضح أمر أوربا لهجومها على امبراطورية مسيحية · وأخذ الراغبون فى الرحيل

يفضلون التوجه الى قبرس أو القسطنطينية الأكثر ثراء وأقل خطرا من الوجود الصليبى فى الأرض المقدسة ٠

وفى الوقت نفسه تمتعت المملكة اللاتينية بالسلام على مدى ما يقرب من عشر سنوات ٠ ويرجع هذا أساسا الى التوتر الذى ساد معسكر الحاكم الأيوبى لمصر ، وكانت هذه المهلة قصيرة من حيث أنه كان من الواضح أن قوات المملكة لم تكن ندا للمسلمين ٠ وانعقد أمل المملكة الصليبية على مجىء حملة كبرى جديدة ٠ وكان من الواضح أن تنظيم مثل هذه الحملة أمر صعب المنال ٠

وعلى الرغم من بعض النكبات ظلت فكرة الحملة الصليبية قائمة ٠ فقد أخذ انوسنت الثالث يحرض على شن حملة جديدة غير عابىء بالفشل الذى حاق بالحملة الأخيرة ٠ وعلى الرغم من النقد والاستياء توهجت شرارة مسيحانية هنا وهناك ، وكان شاهدا عليها أغرب ظاهرة فى العصور الوسطى : تلك هى حملة الأطفال الصليبية سنة ١٢١٢ ٠ فقد عبرت فرق الصبيان بلادهم تحت قيادة شابين أحدهما ألمانى والآخر فرنسى الى شواطىء البحر المتوسط ، وفى ظنهم أنهم سيجدون أرضا يابسة يعبرون البحر من فوقها كما حدث قديما مع بنى اسرائيل عبر البحر الأحمر ٠ وقد نشأت الفكرة وتغذت على أساس أن ما منعته العناية الالهية عن الكبار الآثمين سوف تمنحه للأطفال رمز البراءة ٠ وشق الأطفال طريقهم الى بلاد الاسلام حقا ، ولكن على متن سفن تجار الرقيق المسيحيين وتم بيعهم فى أسواق النخاسة فى شمال أفريقيا ٠

أخيرا قامت الحملة الصليبية التى دعا اليها انوسنت الثالث ، واعلن عنها سنة ١٢١٥ فى مجمع اللاتيران الرابع ، بعد سنتين من موت البابا ٠ وهذه الحملة الصليبية اليتيمة بعد انوسنت الثالث ، والتى تعرف عادة باسم الحملة الخاسمة ، تفتح فصلا جديدا فى التاريخ الصليبى ٠

ذلك أن أهم ما كان يميزها أن هدفها كان هو مصر · وكانت ثمة أسباب عديدة تحفز الصليبيين على الهبوط فى دلتا النيـــل بدلا من نهر الأردن القريب ، أهمهـــا سببان : الأول هو اهتمام المـــدن التجارية الايطالية بالسيطرة على السوق الرئيسية فى حوض البحر المتوسط ، والثانى هو المذهب السياسى والعسكرى الجديد للصليبيين · ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يقصد فيها الصليبيون غزو مصر · ولكن بينما كانت حمـلات أمالريك فى القرن الثانى عشر تهدف الى تحويل مصر الى تابع ، أو حتى ضمها الى املاك المملكة اللاتينية ، كان هدف الحملة الخامسة هو استرداد شرف وهيبة المملكة اللذين فقدتهما على تراب حطين ·

كانت احدى النتائج الهامة للحملة الثالثة هى تلك السياسة التى اقتضت تدمير التحصينات أو « الازالة والمســـــاواة بالأرض » ، وهى السياسة التى بدأها صلاح الدين واتبعها من بعده حكام دمشق · فقد أدرك صـــلاح الدين بحق أهميـــة التحصينات فى المدن والقلاع بالنسبة لسيطرة الصليبيين على الأراضى المقدسة · اذ أن هذه الحصونات كانت ركيزة لأمن المملكة ، فضلا عن تدعيمها لقدرة الصليبيين على حكم الاقليم وقت السلم · وكان الحكم الصليبى الفعال يمتد حتى نقطة الامداد المباشر المتمركز داخـــل التحصينات الصـــليبية فاذا حدث أن اختفت هـــذه الاستحكامات أو المعاقل الصليبية ، لم تعد هنـاك وسيلة لاعادة الحـكم الصليبى سوى عن طريق الاسترداد الشامل الذى كان يعنى انفاقا ماليا ضخما وامدادا هائلا من القوى البشرية · وبالاضافة الى هذا وبعد الحملة الثالثة صار مثل هذا العمل عرضة للاحباط والاجهاض بواسطة الحاميات الاسلامية المجاورة منذ أن صارت أقاليم المملكة ملاصقة للشريط الساحلى الضيق · وبالتالى بدأ صلاح الدين سياســـة التدمير المنظم لكل القلاع الصليبية وتحصينات المدن التى وقعت فى يديه · وحتى معاهدة الصلح التى وقعها مع ريتشارد اشترطت تدمير عدد من التحصينات الصليبية ·

وكان التدمير شاملا ، وقد أجهز حاكم دمشق على القلاع التى لم يدمرها صلاح الدين ٠

واستنتج الصليبيون من هـــذا النتيجة المنطقية التالية : وضـوح استحالة الاسترداد الشامل نظرا لعدم وجود المال اللازم والقوى البشرية المناسبة ، بل والحماسة المطلوبة لبداية الغزو الشامل مرة أخرى ، وفى ظروف أصعب من تلك التى كانت متوفرة قبل مائة سنة ٠ وكانت النتيجة هى توجيه الحملة الى مصر ٠ ذلك أن الانتصار الكبير على مصر سوف يحقق خضوعها واجبارها على الدخول فى معاهدة سلام تشترط ترك المملكة عند حدودها القديمة ٠ وكان تصور الصليبيين أنه بواسطة التحكم فى المملكة التى سـوف تسحب حامياتها من الأرض المقدسـة يمكن استعادة المملكة واعادة تحصينها بفضل الجهود الموحدة للعالم المسيحى ٠ ويمكن تمويل هذه التحصينات من التعويضات التى سوف تدفعها مصر ٠

كانت هذه هى خطة الحملة الصليبية الخامسة التى استغرقت حوالى أربع سنوات ٠ وكانت هذه الحملة ألمانية من أكثر من وجه بالاشتراك مع دوق النمسا وملك المجر ٠ واجتمع الكل فى عكا سنة ١٢١٧ ، ورســـا الأسطول الصليبى فى دمياط وحاصرها سنة ١٢١٨ ٠ وكان قائد الجيوش الصـــليبية هو حنـــا برين ملك القدس بالزواج ، وان كان الكاردينال بلاجيوس ، نائب البابا ، قد تولى القيادة أثناء الحصـــار ٠ وتم احتلال دمياط فى سنة ١٢١٩ ٠ وصار القائد الجديد هو الذى يصدر الأوامر ٠ وكان من الأمور المصيرية للحملة انها انتظرت فى دمياط مدة عام كامل لتقسيم الغنائم والأسلاب ، وأيضا فى انتظار الامبراطور فردريك الثانى الذى أجـــل رحيله الى الشرق أكثر من مرة ٠ وعندما تحركت الجيوش الصليبية أخيرا صوب القاهرة وجدت نفسها قبالة الحصن الجديد الذى أطلق عليه فيما بعد اسم المنصورة ، ومن هذه المدينة قدم السلطان عرضه المتكرر باقرار الســـلام : ومؤداه أن يسترد الصليبيون المملكة باستثناء الأردن ، ودفع تعويضات مقابل الجلاء عن مصر ٠ وكانت شروطه كريمة

ومع ذلك رفضها بلاجيوس على الرغم من موافقة حنا برين · وفرضت الحرب نفسها · وقطع الجيش الاسلامى الذى تلقى التعزيزات من سوريا الطريق بين الجيش الصليبى ومؤخرته فى دمياط وأوقف تقدمه الى القاهرة فى الجنوب · ووقعت فصائل الجيش الصليبى فى الشراك ، واضطر الصليبيون الى التخلى عن أحلامهم فى مصر ثمنا لحريتهم · وهكذا انتهت الحملة الصليبية الخامسة · وجاء هذا الفشل الجديد اضافة الى خيبة الأمل العامة ، وثارت الاتهامات حول الاهمال فى المسئولية · وسرعان ما وجد الصليبيون أنفسهم محطا لسخرية الرأى العام الأوربى · وكان النتائج القليلة الملموسة لهذه الحملة هى تحصين بعض المدن والقلاع ومن بينها قلعة الحج الضخمة التى كان الداوية يملكونها وقلعة مونتفورت التى كان التيوتون يحكمونها · وكانت هذه التحصينات قد بدأت على أيدى الحملة الخامسة قبل التحرك الى مصر ·

وعلى الرغم من كل شىء تجمعت حملة جديدة ، فقد كان الامبراطور فردريك الثانى قد قطع على نفسه القسم الصليبى منذ سنة ١٢١٥ · وكان يؤجل حملته عاما بعد عام بدعوى وجود بعض المشاكل فى مملكة صقلية وداخل الامبراطورية فضلا عن بعض المشكلات الصحية ·· وأخيرا قرر فى سنة ١٢٢٨ أن يبدأ حملته · ذلك أن القسم الصليبى الذى كان قد قطعه على نفسه ، ووضعه كامبراطور فى العالم المسيحى ، ولقبه كملك لبيت المقدس بعد زواجه من ايزابيلا ابنة حنا برين ، جعلت من حملته أمرا حتميا · كما أن الظروف السياسية جعلت من هذه الحملة أقوى الحملات الصليبية · فالبابا جريجورى التاسع كان قد أصدر قرار الحرمان ضد الامبراطور نظرا لمماطلته ومراوغته الواضحة بشكل أغضب البابا · وكان ذلك هو المنظر الأول فى مشهد غريب : فها هو الزعيم العلمانى المحروم من الكنيسة يقود حربا صليبية · واعقبت ذلك أحداث غريبة أخرى · فقد كان فردريك الثانى صقليا أكثر منه أى شىء آخر ،

ولم يكن الاسلام بالنسبة له مجرد كتاب مغلق ، كما أن المسلمين لم يكونوا مجرد قوم من الكفار الذين يستحقون الفناء فى نظره · ولذا أخذ فردريك يتفاوض مع الملك الكامل حاكم مصر مستغلا مشاكل السلطان فى كل من مصر وسوريا · ونجح فردريك الثانى الذى أثار جيشه الصغير سخرية معارضيه ، وجلب عليه قسوة الأصدقاء ، فى أن يحصل فى فبراير سنة ١٢٩٩ على موافقة السلطان على اتفاقية مشجعة : أولا تترك القدس للصليبيين دون ساحة معبدها ومساجدها ، كما يتخلى المسلمون لهم عن بيت لحم والناصرة · ومنح الصليبيون ممرين ، أحدهما بين الرملة وبيت المقدس ، والثانى من عكا الى الناصرة عبر الجليل · وربما توقع البعض أن هذا الاتفاق سوف يؤدى الى رأب صدع الخصومات القديمة ، أو انهائها الى الأبد · ولكن العكس هو الذى حدث فقد أثار هذا النجاح غضب البابوية · ونظمت حملة الامبراطور المحروم الى القدس بحيث لا تتصل به الجيوش والنظم العسكرية الصليبية · وعندما دخل الامبراطور المدينة فى نهاية المطاف سكتت اجراس القدس بمجرد أن خضعت المدينة للتحريم البابوى ·

ودخل الامبراطور كنيسة القيامة ، وتناول تاج بيت المقدس من فوق المذبح ووضعه على رأسه ، ولم يشترك فى هذا الاحتفال سوى الفرسان التيوتون المخلصين · وعلى الرغم من التحريم والمنع لم يستطع الصليبيون فى الأرض المقدسة ، سواء منهم المقيمون بها أو القادمون من أعالى البحار ، كبح جماح فرحهم بتحرير القدس ·

وقد أدانت المعارضة عودة فردريك الثانى الى أوربا باعتبارها تخليا عن المملكة التى لن تكون قادرة على الدفاع عن مكتسباتها الجديدة · وعلى الرغم من أن البابا قد ألغى قرار الحرمان السابق (والذى أعاد فرضه بعد عدة سنوات) ، فان المملكة قد تمزقت بسبب الحرب بين نواب الامبراطور فى الشرق ، وأبناء الأرستقراطية الصليبية حيث تم الاستيلاء

على التحصينـــات الامبراطورية فى قبرص وفى ارجـــاء المملـــكة الصليبية بعد عشر سنوات من الصراع الداخلى ، وقـد أدى خلق حكومة ثورية حاكمـة الى ظهور طبقة اقطاعية · وبذلك دخلت المملكة الصليبية فى طور التحلل والأنهيار ·

وكان من حسن طالع الصليبيين ، أن العالم الاسـلامى المجـاور لم يحرز تقدما · فقد صارت دمشق هى محور المعارضة فى مصر ، كما أن امارة شرق الأردن كانت آخذة فى تغيير حلفائها · وكان الجميـــع على استعداد لقبول الصليبيين كحلفاء · ومن سوء الحظ أن المملكة اللاتينية كانت تفتقر الى الزعيم · فقد انشق الداوية والاسبتارية على أنفسهم وأخذ فريق منهم يؤيد التحالف الدمشقى ، على حين كان الآخر يؤيد التحالف المصرى · وقد نجحت حملة يتوبولد الشـــحبانى (١٢٣٩ ـ ١٢٤٠) ، والتى اعقبتها حملة ريتشارد الكورنلى Richaraed of Cornell (١٢٤٠ ـ ١٢٤١) فى توسيع حدود المملكة وضم الجليل فى ظل ظروف الانقسام السائدة فى المعسكر الاسـلامى · وكانت هناك بعض محاولات لتدعيم المملكة منها تشييد قلعة للداوية فى ضفد ، وتحصين عسقلان · بيد أن الأخطـار الجديدة فى الداخـل والخارج لم تلبث أن أجهزت على النجاح الدبلوماسى الذى كان قد تم احرازه من قبل ·

لقد بدا التوتر والاستعداد للحرب بين مصر ودمشق وشرق الأردن من ناحية والمملكة الصليبية من ناحية أخرى فى الشريط الخصب المحدود حول شرقى البحر المتوسط كما لو كان نوعا من المراوغة التافهة اذا ما قورن بذلك الاضطراب المهول الذى غير وجه آسيا وحسم مصير شرق أوربا على مدى أجيال ، على الرغم من أهمية الحروب الصليبية بالنسبة لمصـــائر المشـاركين فيها · ففى قراقورم فى آســيا الوســطى ظهر نجم جديد هو جنكيزخان حاكم المغول · فبعد ان سيطرت هـــذه القـــوة الجديدة على القبائل المغولية اندفع المغـول بخيولهم السريعة الصغيرة القوية ليقهروا

الصين فى أقل من جيل ، ثم اندفعوا كجلمود صخر خطة السيل من عل يدمر كل شىء فى طريقه ، فأخضعوا مناطق السهول الروسية فى الغرب حتى سنة ١٢٤١ الى الحدود الألمانية البولندية · وفى الجنوب استولوا على فارس والعراق · وشادوا امبراطورية أوربية آسيوية أكبر من أية امبراطورية سابقة فى التاريخ ، ولكن هذه الامبراطورية قامت على انقاض حضارات أخرى سابقة · وكانت موجات الغزو المغولى صوب شواطىء البحر المتوسط ، وكانت الدويلات الصليبية فى ذلك الحين على أطراف امبراطورية المغول ·

كانت قعقعة الحوافر المغولية تتصاعد وتقترب حين انضم الصليبيون الى تحالف دمشقى ضد مصر التى أحست بخطر هذا التالف القوى فطلبت مساعدة الخوارزميين الذين كانوا قد تحولوا الى مرتزقة يجوبون أنحاء الشرق الأدنى بعد أن كانت لهم دولة قضى عليها الغزو المغولى واستولى على املاكها بالقرب من البحر الأسود · وقد أوقع المصريون والخوارزميون هزيمة مريرة بالصليبيين فى معركة غزة · وكان السوريون قد نقضوا تحالفهم مع الصليبيين فى اللحظة الأخيرة · وبعد ذلك مباشرة هاجم الخوارزمية مدينة القدس فى سنة ١٢٤٤ · ولم تعد المدينة الى حوزة المسيحيين بعد ذلك ، كما أنها لم تشهد جيشا مسيحيا الا بعد سبعة قرون حين احتل الانجليز المدينة المقدسة وانتزعوها من الأتراك العثمانيين بقيادة اللبنى ·

وقد أثار الخطر المغولى الزاحف مخاوف أوربا ، فأخذت تسعى للبحث عن حلفاء جدد · ومنذ عام ١٢٤٥ ، أى عندما أرسل البابا انوسنت الرابع مبعوثه جيوفانى بيانو كاربينى Jiovani of Piano Carpini الى البلاط المغولى ، وأعقبه بسفارة وليم روبروكيس Willianm of Rubruquis (١٢٤٨ ـ ١٢٤٩) ، بدأت الشائعات تروج حول وجود مسيحيين بين القبائل المغولية · وكان لهذه الاشاعات ظل من

الحقيقة حيث تمكنت الدعاية الفسطورية فى آسيا الصغرى أن تحول عددا من أبنـــاء القبائل المغولية الى المسيحية · وكان من نتائج سقوط القدس والخطر المغـــولى الماثل أن بدأ التفكير فى حملة صليبية جديدة · وكانت آخر حرب صليبية كبرى هى تلك التى تولى قيادتها سان لويس أو لويس التاسع ملك فرنســـا · وكانت قبرس هى نقطة التجمع والمتمركز للحملة الصليبية الجديدة حيث أمدت الحملة بالكثير من المؤن والذخائر · وفى ربيع سنة ١٢٤٨ ابحرت الجيوش صـــوب مصر ، واحتلت دمياط مـرة أخرى ، ثم تحرك الجيش باتجـــاه القاهرة · ولكن حدث ما ســـبق أن تعرضت له الحملة الخامســة ، اذ وقـع الجيش الصـليبى فى الفخ عند المنصورة حيث انتهت هجمة طائشة قام بها شقيق الملك الى كارثة ، فقد تم أسر الملك ، وجميـــع أفراد الجيش الصليبى · وفى مقابل الافراج عنهم اضطر الصليبيون الى الرحيل عن مصر ودفع فدية ضخمة تصل الى حوالى مليون قطعة ذهبية ·

انتهت الحملة الصليبية · وقضى أولئك الذين عادوا الى عكا (مايو ١٢٥٠) السنوات الأربع التالية فى تحصين المدن الصليبية الســـاحلية وتقوية حصونها · فاضافت كل من صيدا وعكا وقيصرية ويافا قلعة وبرجا وســـورا الى ما هو قائم بالفعل · الا أن أوربا صمت آذانهـــا أمام كل النداءات بالمساعدة · ولم يتحرك جنوبا سوى حركة قام بها الشباب تدعى البوستورو Peter of Amiens ، الا أنها سرعان ما انتهت على أيدى السلطات العلمانية والكهنوتية ، لأنها اتخذت من الحرب الصليبية شعارا لها كما دأبت على مهاجمة رجال الدين ·

وضمنت التحصينات الساحلية وجود المملكة لفترة من الزمن ، على الرغم من أن منطق الصليبيين كان يفترض أن تقوم حملة صليبية جديدة لمساعدتهم فى الأرض المقدسة · وفى الوقت نفسه جرت حادثتان غيرنا من اطار وتركيبة الشرق الأدنى ، فقد حدث ابان حملة لويس التاسع أن قامت

ثورة فى مصر سنة ١٢٤٩ استولت على عرش الايوبيين الذى أسسه صلاح الدين(١) ، وأتت بطبقة المماليك العسكرية الى السلطة بادئة بذلك اغرب نظام حكم فى التاريخ · فقد كان المماليك عبيدا جلبوا عبر البحر الأسود ، واعتنقوا الاسلام ، وتمت تنشئتهم كمقاتلين محترفين لا ينضم الى صفوفهم الا من كان مثلهم من الرقيق ، ولكن بمجرد قبوله فى صفوف المماليك تصبح أمامه الفرصة لكى يصل الى أعلى مناصب الدولة والجيش ·

وفى سنة ١٢٦٠ كان المملوك بيبرس هو الرجل الحاكم فى مصر ، وهو قائد ممتاز ورجل دولة هائل القدرة ، وهو من أعظم حكام العالم الاسلامى · فقد استطاع أن يغير مصير الشرق الأدنى فى أكثر من اتجاه ، فسرعان ما وضع يده على موارد مصر المالية واستبدل الأيوبيين الكسالى برجال عصاميين يتدفقون نشاطا وحمية · وكان لاستيلاء المماليك على الحكم فى مصر أثره من حيث تعميق هوة الخلاف بين القاهرة وسوريا التى كانت ما تزال تحت حكم امراء بنى أيوب · وكانت المواجهة بين الطرفين حين وصل الطوفان المغولى الى العراق ، واستولت القبائل

---

(١) الحقيقة أن وصف استيلاء المماليك على الحكم فى مصر بأنه بيبرس احياء الخلافة العباسية فى مصر محاولا أن يكتسب من خلالها ثم فانهم دبروا ما يشبه الانقلاب الصامت للاستيلاء على السلطة . ثم اعاد ثورة يجافى الواقع الى حد كبير · ففى تصورنا أن وثوب أولئك العبيد السابقين على عرش البلاد انما جاء استجابة للتطورات السياسية التى ألمت بالعالم الاسلامى فى منتصف القرن الثالث : فها هى مساحة الأراضى الاسلامية على أرض الأندلس تتقلص بفعل ضربات الاسترداد الأسبانية على حين سقطت الخلافة العباسية فى بغداد ، فى الوقت الذى كان فيه الأيوبيون غارقون فى منازعاتهم وحروبهم الداخلية · وقد أدى انتصار المماليك فى المنصورة ، ثم فى عين جالوت الى تأكيد صورتهم باعتبارهم القوة العسكرية الوحيدة القادرة على الدفاع عن العالم الاسلامى · ومن الشرعية التى كان يفتقر اليها حكمه ·

انظر قاسم عبده قاسم ، دراسات فى تاريخ مصر الاجتماعى ، عصر سلاطين المماليك (دار المعارف ١٩٧٩) ·

المغولية على بغداد سنة ١٢٥٨ · ولكى يتم تحاشى كارثة كونية اذا ما سفك دم الخليفة المقدس ، وضع الخليفة الثامن والثلاثون وآخر خلفاء بنى العباس فى غرارة ، وخنق حتى مات ، ثم استولت الجيوش المغولية بقيادة هولاكو على دمشق · وباتت الحرب مع المصريين وشيكة الحدوث ، وقنع الصليبيون بدور المتفرج فى هذه المواجهة الكبيرة ، فلم يكن لهم حول ولا طول ، كما كانوا يفتقرون الى الزعامة ، كما اضعفتهم الحروب الداخلية بين الكومونات الايطالية ، على الرغم من معركة عين جالوت الحاسمة (١٢٦٠) قد دارت رحاها على اعتاب ديارهم · ولقى المغول هزيمة نكراء ، ثم تقهقروا بسرعة فى اتجاه سوريا · وكانت تلك معركة من معارك التاريخ الحاسمة التى قررت مصير الشرق الأوسط ومستقبله ومنعته وقوعه فى براثن المغول · ثم حقق بيبرس انتصارات أخرى دفعت بالمغول مرة أخرى الى فارس وأرمينيا ·

وبمطاردة المغول المتقهقرين صار بيبرس سيدا على سوريا ، وأحاط ببقايا مملكة الصليبيين من كل اتجاه ، وكان من السهل عليه آنذاك أن يهاجمها ويدمرها ، ولكن مهام أخرى أكثر أهمية كانت تشغله · فعلى الرغم من انتصاراته كان المغول لايزالون يشكلون خطرا حقيقيا · واطلق بيبرس من جديد شعار الجهاد ضد المغول فى هذه المرة · كما حاول تكوين حلف اسلامى بضم مغول القرن الذهبى على شواطىء البحر الأسود ·

ونجحت ثلاث حملات قصيرة (١٢٦٣ ـ ١٢٦٦) فى حرمان الصليبيين من صفد ومن قلاع أخرى فى الجليل · كما استولى على قيصرية وأرسوف وحد من مساحة الشريط الضيق الذى قامت عليه المملكة ، وتم عزل مدن الساحل الصليبية عن بعضها البعض بواسطة الأراضى التى يسيطر عليها المسلمون · وبدا لوهلة أن حربا صليبية جديدة سوف تدور رحاها وتستخدم رؤوس الجسور الصليبية لكى تبدأ حربا

استردادية ضد المسلمين · وبالفعل بدأ لويس التاســـع فى تجهيز حملة كبيرة ، ولكنها اتجهت الى تونس التى كان حاكمها بزعم أنه على استعداد لقبول المسيحية · ويقال أن الملك لويس التاســـع كان يردد كلمة القدس القدس بصـــوت خفيض وهو على فراش المـــوت · بيد أن فكرة الحروب الصليبية كانت قد انتهت · أما محاولات جيمس ملك أرغونة الذى وصل الى منتصف الطريق الى الأراضى المقدسة ، وادوارد الأول ملك انجلترا ، فكانت مجرد جزء من قانون الفروسية أكثر من كونها محاولات لشن حرب صليبية قادرة على تغيير الموقف · ولكنها كانت ســـببا فى اعاقة بيبرس وخلفائه الذين تملكتهم فكرة امكان قيام حملة صليبية جديدة · وطالما لم تكن المدن الصليبية تضايق حكام المماليك ، كان المماليك على استعداد لمنح هذه المدن الهدنة التى كان بوسعهم نقضها متى شاءوا وحين يرون الوقت مناسبا لذلك ·

وأعطى تاج بيت المقـــدس لآل لوزينان فى قبرس ، ولكن جهودهم المخلصة لم تغير شيئا من الموقف · وأخذ الوجود الصليبى يتلاشى شيئا فشيئا · فتم الاستيلاء على انطاكية سنة ١٢٨٦ وطرابلس سنة ١٢٨٩ · وأخيرا سقطت عكا ، ذلك الحصن الصليبى الكبير بعد حصار باسل دام اربعة واربعين يوما ، ثم سقطت عكا فى ١٨ مايو ١٢٩١ · وكانت هـذه هى النهاية ، ففى اغسطس ١٢٩١ هجر الداوية قلعة الحج ، أعظم القلاع الصليبية · وكان ذلك هو فصـــل الختام بالنسبة للحج الأوربى الكبير · ونهاية للملكة الصليبية ·